لماذا بقيت أم أيمن في البيت

طرح عدد من الإخوة والأصدقاء على الأخ عصام العطار هذا السؤال : لماذا كانت أم أيمن في الفترة الأخيرة في البيت ، ولماذا بقيت فيه بعد محاولة القتلة المجرمين للتسلّل إليه قبل استشهادها –رحمها الله– بيوم ؟ وهذا بعض جواب الأخ عصام الذي يتشوّق إلى سماعه أيضاً عدد كبير من القرّاء الذين سألوا نفس السؤال

لقد كانت السلطات الألمانية تسمح لي أحياناً بالبقاء في بيتي في آخن مع عدم الخروج منه إلاّ لضرورة قصوى وإن وكانت ترغب إليّ أحياناً أو تصرّ إصراراً على مبارحة البيت والمدينة .. من أجل سلامتي من جهة ، وسلامة أسرتي وجيراني في البناية والحيّ من جهة أخرى كما تقول ، ومن أجل الاحتياط أيضاً لسمعة ألمانيا الخارجية وسمعة أجهزتها الأمنية التي يسيء إليها وصول القتلة إليّ واغتيالهم لي مع علم هذه السلطات والأجهزة وعلم العالم كلّه بأنّني معرّض للموت ، وأنّ الحكم السوريَّ يريد القضاء عليّ بأيّ شكل وبأيّ ثمن .. ومن أجل أسباب أخرى لا أريد ولا أستطيع أن أذكرها الآن

خرجتُ آخر مرة من البيت قبل الجريمة بنحو أسبوع .. وكنت مكثت فيه بإذن السلطات المختصة بعض الوقت عقب خروجي من أحد المستشفيات التي دخلتها خارج آخن للعلاج ، وعقب غيبةٍ أطول كانت قد فُرضت عليّ فرضاً عند اكتشاف مؤامرة واسعة كانت ستنفّذ آخرَ السنة الماضية أو أوّلَ يوم في هذه السنة .. تستهدفُ ضربي بالقنابل والرشاشات عند خروجي من المنـــزل أو عند وصولي إلى المسجد

خرجتُ قبل الجريمة بنحو أسبوع من البيت والمدينة مُلزَماً بالخروج منهما ، ودخلت في مكان منعزل بعيد أحد المصحّات المختصة لاستكمال العلاج ، ورجعت بنان –التي أوصلتني بسيارتنا– إلى آخن ، وبقي معها ومع أيمن بنتُها وصهرها وحفيدتها الرضيعة إلى ما قبل استشهادها بيوم واحد

وكان من عادة أمّ أيمن رحمها الله تعالى ، عندما أضطر إلى مبارحة آخن أن تكون معي أو أن تبقى في البيت –إن كانت هنالك ضرورة أو أحداث مهمّة– ليبقى الاتصال قائماً بيني وبين إخواني وبيني وبين العالم الخارجي على أفضل وجه ممكن ، ولتساعدني –طائعةً مختارةً قريرةَ العين مصرّةً على ذلك كلّ الإصرار– على ممارسة مسؤولياتي ، والنهوض بواجباتي الإسلاميّة المختلفة بشكل سريع فعّال .. إذ أنّ جانباً كبيراً من الاتصالات الداخلية والخارجية يتمّ عَبْر هاتفي وبيتي وعن طريق زوجتي أم أيمن رحمها الله

وقد ألححتُ كثيراً هذه المرة على أم أيمن قبل السفر وبعد السفر في البقاء معي في المصحّ ، فقد كانت مريضة متعبة مرهقة بأعمالنا وظروفنا إلى حدّ بعيد ، وكانت تحتاج أمسّ الحاجة إلى شيء من العلاج والراحة وتغيير الجوّ ، فهي لم تنل أيّ قسط من الراحة ، ولم تظفر بأيّ إجازة من أعمالها (الطوعية) الكثيرة المتعدّدة الجوانب منذ زمن طويل طويل .. ولكنّها أصرّت رغم مرضها وتعبها على العودة إلى آخن والبقاء –رغم كلّ خطر محتمل– في بيتنا هناك ؛ فقد كان بعض إخواننا المجتمعين في مكان ما خارج ألمانيا يحتاجون إلى الاتصال الهاتفيّ بنا باستمرار ، لأمور إسلامية هامّة تحتاج إلى رأينا وعوننا على تذليل ما يعترض طريقها من العقبات .. ويُصَعِّبُ هذه الاتصالات الضرورية المتبادلة –ولا أقول يحول دونها– عدمُ وجودي أو وجود أم أيمن في غيابي في البيت

وهكذا عادت أم أيمن إلى آخن وإلى بيتنا المهدّد في آخن .. إيثاراً لله ورسوله والدار الآخرة ، ومصلحة الإسلام والمسلمين ، على كلّ حاجة من حاجات الجسم والنفس وعلى كلّ مطلب من مطالب الأمن أو من مطالب الأرض .. رغم حاجتها إلى العلاج والراحة كما قدّمت ، ورغم خوفها المتجدّد عليّ ، وإيثارها للوجود معي عوناً ووقايةً لي .. ما سمحت بذلك ظروفُ العمل الإسلاميّ ، وما يفرضه هذا العمل عليّ وعليها من واجبات

وبقيت أم أيمن في البيت تتلقّى عني المخابرات الهاتفية وتوصلها إليّ ، وتبلّغ إخواني عن ما يجب أن تبلّغ ممّا أحسبه وتحسبه معي أرضى لله عزَّ وجلَّ ، وأحرى بجمع الصفوف والجهود على طريق الإسلام المستقلّ المتميّز ، وعلى ما يحقق –إن صدقتِ النوايا وحصل الوفاء والالتزام– مصلحة الإسلام والمسلمين ، ومصلحة الأمّة والبلاد إن شاء الله

وفي اليوم السابق لاستشهادها –رحمها الله– وقعت محاولة التسلّل إلى البيت باسم إصلاح خطوط الهاتف ، وتبيّن للبريد والبوليس أنّهم عمّال زائفون ، وأنّهم القتلة في ثياب العمال .. وتبيّن أيضاً أنّ البقاء في البيت أصبح مساوياً للموت

ولكن أم أيمن استمرّت في إصرارها وفي تصميمها على إنجاز مهمّتها الإسلاميّة الحريصة على إنجازها والوصولِ بها إلى غايتها الإيجابية المأمولة

وكان آخرُ حديث دار بيننا قُبيلَ منتصف الليل .. نقلتْ لي في هذا الحديث الهاتفي الطويل ما وصلت إليه جهودنا وجهود إخواننا من نتائج إيجابية والحمد لله .. وقالت لي في هذا الحديث الأخير وقالت وقالت ما استقرّ إلى الأبد في أعماق قلبي ، وما لا يمكن أن أنساه مهما كُتب لي أو كُتب عليّ في هذه الحياة .. ووعدتني في آخر حديثها الصميميّ العميق العذب المترع بالإيمان والإخلاص والحبّ والإيثار والسموّ .. وعدتني بأن تلحق بي قبل ظهر الغد ؛ إذ تكون مهمتها في آخن قد انتهت ، ويكون قد وصلها آخر ما يمكن أن يصلها في الموضوع .. ولكنّه على خلاف عادتها المأثورة بالوفاء بكلّ ما تعد .. لم تلحق بي ؛ فقد كانت في الساعة التاسعة والنصف من قبل ظهر يوم الثلاثاء

١٩٨١/٣/١٧م على موعد آخر مع الشهادة التي أكرمها الله بها وهي تقف بشجاعة وبطولة وتضحية خارقة على ثغر من أهمّ ثغور العمل الإسلاميّ الخالص المتجرّد لله عزَّ وجلّ

وحوالي الساعة العاشرة من هذا اليوم الخالد الدامي في حياتي وحياة أسرتي وحياة الطلائع الإسلاميّة في كلّ مكان من الأرض .. رفعتُ سمّاعة الهاتف واتصلتُ بالبيت فردّ عليّ رجل ألماني ، فرددت السمّاعة وظننت أنّني قد أخطأت في إدارة الأرقام ، ثمّ رفعت السماعة من جديد وأدرت الأرقام ثانية بدقة وحرص .. فردّ عليّ نفس الرجل ، فذكرت له عند ذلك اسمي وسألته من أنت ؟ فأجابني بصوت متهدّج مضطرب بأنّه أحد المسؤولين في البوليس ، فطلبت منه –وقد أحسست بأنّ شيئاً خطيراً قد حصل عندنا في البيت– أن أتكلّم مع زوجتي ، فأجابني بصوت حزين عميق تُقَطّعه الدموع :

كن شجاعاً كما يجدر بقائد كبير مثلك يا أستاذ عطار ، فأنت بحاجة إلى أقصى درجات إيمانك وشجاعتك لتتحمّل هذا النبأ .. إنّك لن تستطيع أن تتكلّم مع زوجتك الآن ولا بعد الآن ، فقد قتلها أعداؤكم وأعداء الإنسانية كلّه بالرصاص